اللغة العربية وفهم القرآن والسنة: الطريق إلى النور!

د. خالد فهمي
كلية الآداب - جامعة المنوفية

لقد كان مما انتشر واستقر حقيقة علمية في تاريخ العلم عند المسلمين، أن نزول القرآن الكريم كان باللسان العربي. وهو الأمر الذي أعلنه الذكر الحكيم في ملمح مهم من ملامح التعريف بنفسه، يقول تعالى ﴿ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل:١٠٣)، ويقول عزوجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٥)، ويقول عزوجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢)، ويقول جل شأنه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (الشورى:٧)، ويقول تبارك اسمه: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف:٣).

وكان مما ترتب على هذا الإعلان المستفيض أن فهم العلماء أن منطق الأشياء يفرض أن يعتنى بالعربية وقوانينها وعلومها جميعا، ولم يفتأ العلماء على مر العصور يبينون ذلك ويكشفون عنه، حتى صارت قضية منطقية من لازم عمل العقل عند النظر في مقدماتها.. فترى الشافعي يقول في رسالته: (ص ٤٠ بتحقيق العلامة أحمد شاكر): «ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب»، وتطور الأمر عند المعاصرين فكان من نتائجه القول بأنه لولا القرآن ما كانت العربية -على حد تعبير العلامة رمضان عبدالتواب في كتابه «فصول في فقه العربية»-(ص١٠٨) قاصدا بها: «أن القرآن هو المحور» الذي فجر العلوم اللسانية والعربية وغيرها. ولم يزل هذا الناتج قائما يزداد مع مرور الأيام أنصارا حتى صح أن نقرر أن اللغة العربية لم يكن لها أن تصير لسانا عالميا إلا بفضل نزول الكتاب العزيز بها، ومن هنا فرض منطق الأشياء أن تتقدم المعرفة باللسان العربي، وتتحول إلى منظومة من علوم لسانية تستهدف جميعها خدمة قضية فهم الكتاب العزيز وما معه مما هو من مثله، وهو الحديث النبوي الشريف، حتى صار لازما عقليا القول بأن تحصيل فهم هذين الأصلين العظيمين غير محقق إلا بالتضلع والغوص الشديد والصبر الأكيد على تحصيل العلوم اللغوية والتوسع فيها وفي مقرراتها، من الصوت إلى النص، وأن كل توسع في هذا الباب عائده شهي إلى أبعد الحدود، لا يجادل في ذلك أحد على الإطلاق.

الوعي بقضية أهمية اللغة

وقد كان من أثر منطقية العلاقة وعضويتها بين نزول الوحي باللسان العربي المبين وترقي العلوم اللغوية العربية، ظهور مؤلفات مستقلة تفرغت لمناقشة هذا المشكل العلمي المتعلق ببيان أهمية اللغة العربية لفهم القرآن والسنة في التراث. وقد وصل إلينا من أدبيات هذا الوعي ما يلي:

- الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية لابن عبدالكريم الطوفي الصرصري الحنبلي المتوفى ٧١٦هـ.
- روضة الإعلان بمنزلة العربية من علوم الإسلام لابن الأزرق الحميري الأصبحي الغرناطي، المتوفى ٨٩٦هـ.

لقد اجتهد هذان العالمان في جمع الأسباب الموجبة للعناية باللغة العربية، وجمعا بسبب من تأخرهما الزمني أدلة كثيرة تثبت الحاجة الماسة لترقية علوم هذه اللغة من جوانب كثيرة، كان أهمها ما يتعلق بالكتاب العزيز والسنة المطهرة، وفيما يلي محاولة موجزة لقراءة أهم ما ورد من حقائق في كل منهما:

- الصعقة الغضبية للطوفي المتوفى ٧١٦هـ: حرص الطوفي على الانطلاق من أن إرادة صيانة اللسان من دواعي الفساد والتي بدت ملامحها بتأثير مسلمة الفتح ممن سماهم «هذه الحمراء»، وهو مقصد مهم جدا يمنع عند تأمله من تطرق مادة الفساد إلى الذكر الحكيم والسنة الشريفة، ثم جمع أدلة فضل العربية ووزعها على أنواع ثلاثة، هي: أدلة فضلها من الكتاب ومن السنة ومن صريح العقل، ثم عرج على ذكر فضل من حصل علوم هذه اللغة وبيان عيوب من أخطأ فيها وخلى منها. على أن أهم ما يستفاد من الكتاب في موضوعنا هو ما أورده المؤلف في الباب الرابع

من بيان كون العلم بهذه اللغة أصلا من أصول الدين، ومعتمدا من معتمدات الشريعة، وكشف في هذا الباب على امتداد فصول ثلاثة تأثير العلم باللغة في تحصيل مراد القرآن والسنة، وتخريج الأحكام بناء على قواعد العلم بها، للدرجة التي قرر معها (ص٦٣١) قائلا: «لو استقصينا المسائل الشرعية المعتمدة على القواعد العربية لكانت مقدار ثلث الفقه على ما تقرر»! وسواء صح هذا التقدير أو لم يصح، فإنه كاشف عن مدى الأهمية التي كان يستشعرها الوعي اللغوي في تراث دراسات هذه اللغة، وعبرت عنه أمثال كتاب الصعقة الغضبية في كثير جدا من المواضع.

- روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، لابن الأزرق الحميري الأصبحي الغرناطي المتوفى سنة ٨٩٦هـ:

وإذا كان الوعي المشرقي، كما تجلى في كتاب «الصعقة الغضبية» ظهر وكشف عن حقيقة تقدير أهمية اللغة العربية لمن رام التعامل مع الكتاب والسنة والشريعة، فإن الوعي المغربي لم يكن بعيدا، وإن تأخر بطبيعة الحال نسبيا، وجاء مستفيدا ومواكبا منجز المشارقة في هذا الباب، وهو ما نلمسه من حجم كتاب ابن الأزرق، ومن تنظيمه الدقيق، فقد توسع في ذكر الفضائل العقلية والنقلية، والمركبة منهما، ثم قرر أن الاحتياج إليها في ملة الإسلام ضروري، وهو ما يعني احتياج الاعتقاد والشريعة إلى اللغة العربية، حتى تقرر عنده بالدليل أنه «يلزم الخوض فيهما (أي اللغة والنحو) بسبب الشرع؛ إذ جاءت الشريعة بلغة العرب. وكل شريعة فلا تظهر إلا بلغة أهلها».

إن هذين الكتابين المستقلين في بيان فضائل العربية، وأهمية تحصيل قواعدها يكشفان عن وعي حقيقي مدعوم بالأدلة والنماذج التطبيقية بقيمة اللغة العربية، وأهميتها لتحقيق الإيمان وتأسيسه، وفهم الكتاب والسنة جميعا!

أهمية اللغة العربية

إن من أكثر الأشياء صعوبة محاولة استيعاب القول في أهمية اللغة العربية لفهم الكتاب العزيز والسنة المشرفة، لتشعب الموضوع، واتساع مسائله، ولكن ربما كان كافيا في هذا السياق أن نشير إلى مجمل ملامح هذه الأهمية فيما يلي:

أولا: تأسيس الإيمان وفق الدليل اللغوي

إن أول الملامح التي تتجلى في سياق قراءة أهمية اللغة العربية في فهم الكتاب والسنة يكمن في أن تأسيس الإيمان لا يكون من دون استصحاب الدليل اللغوي، فقراءة ﴿ إِيَّاكَ ﴾ (الفاتحة:٥)، بكسر حركة الكاف مثلا يفضي إلى مشكلات عقدية مرعبة، تدخلنا إلى جر التأنيث عليه سبحانه مثلا، وهو ما يعني أن تحصيل قواعد اللغة ابتداء من الصوتيات فما فوقها أمر لازم لبناء اعتقاد صحيح مدعوم بالدليل، ومانع من الوقوع في مصايد الخلل الاعتقادي الذي قد يخرج الإنسان من الملة، أو يجره إلى مستنقع عدم تنزيه الله تعالى، أو تقدير ما يصدر عنه مما هو داخل في أصول الاعتقاد أو فروعه.

ثانيا: تحقيق حق التلاوة

لقد جاء الأمر الشرعي بتلاوة الذكر الحكيم حق تلاوته في سياق امتداح فعل من يفعل ذلك، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ (البقرة:١٢١)، وقد جاء في تفسير «حق تلاوته» رأيان، هما:

يقرأونه حق القراءة، ولا تكون إلا بتحصيل علوم لغة العرب، أصواتا وأبنية وإعرابا ونحوا.

يتبعونه حق اتباعه، ولا يكون إلا بعد فهمه، وتحصيل معناه، والاستنباط منه، وقد تقدم أن ذلك لا يتم بدون فهم لغة النص الكريم، مجموعا إليه ما ورد من شروح في السنة المشرفة.

ثالثا: تدبر الذكر الحكيم

لقد أمر الله تعالى بتدبر كتابه في أكثر من آية، يقول تعالى ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ (ص:٢٩)، والتدبر مرتبة لا تكون إلا بعد الفهم، المنبني على تطبيق قواعد اللغة العربية واستثمارها. وإذا كان التدبر من الأسباب الحاكمة للتنزيل على ما قرره المفسرون فإن تحصيل قواعد اللغة تبعا لذلك يعد من الأسباب الحاكمة لصناعة التدبر، وبناء ملكته.

رابعا: التكاليف الشرعية

إن أهمية اللغة العربية في هذا الباب ظاهرة جدا، والعمل فيما نقلناه عن الطوفي الحنبلي يؤكد ذلك، إذ إنه قرر أن ثلث الفقه -في تقديره- معتمد على قواعد اللغة. وهذا الباب متسع جدا لدرجة أن مبحث حروف الجر أو حروف المعاني مؤثر جدا في كثير من مسائل الفقه الموزعة على الأبواب جميعا.

وقد توسع ابن الأزرق -عن حق- فقرر «أن حفظ الضروريات الخمس وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال، من أعظم مقاصد الشرع... (و) أنها واجبة الحفظ في كل ملة، وحاصل حفظها يرجع إلى كل ما يقيم وجودها»، وقد خلص من هذا إلى أن العناية باللغة العربية والاهتمام بها من موجبات هذا الحفظ.

وقد نشأ من أجل ذلك تفريع للأحكام الفقهية المختلفة تبعا لاختلاف الفهوم للأدلة الشرعية من قرآن وسنة من جهة قواعد اللغة، ومما يدلك على بعض هذا خلافهم في معنى «من» في قوله تعالى في آية التيمم ﴿ فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ (المائدة:٦).

إذ حملها بعضهم على ابتداء الغاية، وحملها آخرون على التبعيض، مما كان منه اختلاف الحكم الفقهي المتعلق بالتيمم على رأيين هما:

حصول التيمم دون النظر إلى علوق التراب الطاهر باليد لمن فهم من (من) معنى ابتداء الغاية.

حصول التيمم بشرط علوق التراب الطاهر باليد لمن فهم منها معنى التبعيض. وبسبب من ذلك اتسعت مدونة الفقه وغنيت وتمتعت بثراء عريض دال على فضل العربية وأهميتها في تحليل الأصلين العظيمين وفهمهما والاستنباط منهما.

خامسا: شبهات المنحرفين

وقد ظهرت أهمية كبيرة للغة العربية في فهم الكتاب والسنة في مجال الرد على شبهات المنحرفين وأصحاب الأهواء من أهل الفرق والملل؛ إذ اعتمد كثير منهم على نصوص شرعية حرفوها لتسويغ مقالاتهم في الاعتقاد وغيره، من مثل احتجاج القدرية بالحديث المتفق عليه الذي رواه أبوهريرة عن رسول الله ﷺ قال: «احتج آدم موسى فقال: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة. فقال آدم: أنت الذي اصطفاك بكلامه.. تلومني على أمر قدره الله علي.. فحج آدم موسى» برفع «آدم» على أنه فاعل «حج» ونصب «موسى» على أنه «محجوج»، يقول الطوفي: «وبيان ذلك أن الله تعالى تقدم في سابق علمه إخراج آدم من الجنة بسبب الأكل من الشجرة بدليل ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠)، وما علمه الله أن سيكون فهو كائن لا محالة، إذ خلاف معلوم الله تعالى محال وحينئذٍ عدم عصيان آدم محال، وهذا أكبر دليل يحتج به لأهل السنة على إثبات القدر». ثم يقرر أن القدرية حرفوا الرواية ونصبوا آدم. وهو دليل حاسم على التفطن لأثر اللغة في توجيه الآراء والانتصار للاعتقادات. وأهل الأصلين (القرآن والسنة) يلزمهما التضلع من علوم اللغة لخطرها على ما يستنبط من هذين الأصلين في كل مجالات الدين والحياة.

سادسا: أهمية اللغة

إن أهم مصدر لتكوين الدعاة إلى الله تعالى وإمدادهم بمراده يتمثل في مداومة الاتصال بالكتاب العزيز والسنة المشرفة، وعلى هذا انعقد إجماع من أصل لثقافة الداعية من العلماء المعاصرين، ذلك أن القرآن والسنة لا يجودان بكنوزهما إلا لمن ملك مفاتيح التعامل معهما، وهي تلك المفاتيح المتمثلة في قواعد اللسان وأسراره. وتبرز أهمية اللغة في هذا المقام في ملامح بعينها من مثل:

ترقية ملكة البيان لدى الدعاة، مع دوام الاتصال بلغة الذكر الحكيم وسمت كلام النبي ﷺ القائم على الخلوص إلى القصد من أقرب طريق.

تحصيل مراد الله تعالى بدليله اللغوي، تمهيدا لبذله للناس.

ترقية مروءة الدعاة؛ إذ تحسين اللسان يزيد في مروءة الإنسان ويعلي من تأثيره في المدعوين.

سابعا: ترقية العمران

لقد استقر في دراسات الحضارة المعاصرة المرتبطة بالمرجعية الإسلامية تقرير أن القرآن والسنة مصدر لترقية العمران الإنساني، وفق قوانين هذا الدين الثابتة في الأصلين العظيمين. ومما أسهمت تطبيقات اللغة العربية في الكشف عنه في هذا الباب:

أن الظلم معيار وقانون مسقط للعمران.

أن العدل قانون يرقى بالعمران.

أن الفحش وسوء الخلق والسفه في استعمال الموارد مدمر للحضارة.

أن العمل اليدوي أصل ثابت في ترقي الحياة، فقد كشف التحليل اللغوي للقرآن والسنة امتداح العمل، والإخبار عن كثير من الأنبياء أنهم عملوا أعمالا يدوية من حدادة ونجارة وبناء وتشييد...إلخ.

لزوم الأخلاق الفاضلة لتقدم العمران.

العناية بالإنسان أصل كل عناية بالعمران.

إن فهم القرآن والسنة وفق مقررات اللغة وقواعدها كاشف عن أهميتها المركزية في استصدار قوانين العمران وفق التصور الحضاري في الإسلام.

ثامنا: أهمية اللغة في الكشف عن المنظومة الأخلاقية

ومما يعبر عن أهمية اللغة العربية في سياق فهم الكتاب والسنة أنها طريق للكشف عن المنظومة الأخلاقية التي أرساها وأسسها التصور الإسلامي. ومما يمكن بيانه في هذا الصدد ما يلي:

الكشف عن ثبات منظومة الأخلاق الإسلامية التي جاءت نصوصها في الكتاب والسنة مطلقة غير مقيدة بقيود لغوية تمتدح الصبر والصدق والعفة والأمانة والمسؤولية الفردية في السياقات جميعا.

إثبات مركزية بذل حسن الخلق للناس جميعا مؤمنين وغير مؤمنين، إحسانا وبرا في التصور الإسلامي.

إثبات مركزية رعاية الوجود كله في محيطه الإنساني والحيواني والبيئي، فقد تقرر من فهم الكتاب والسنة وفق قواعد اللغة الرفق بالحيوان، وتحريم فجيعة الطير بولده والحفاظ على البيئة وحسن استثمار مواردها.

الإعلاء من القيم الأخلاقية التي تصب في حفظ بدن الإنسان وتهذيب روحه وتأمين نفسه.

إن اللغة العربية في قضية توقف فهم الكتاب والسنة عليها ثم تفعيلهما في الوجود تصل إلى أن تكون محورا وعمادا أساسيا لا يمكن بدونه تصور إقامة الدين. وهو ما يعني أننا في طريقنا نحو النور القادم من الله تعالى يلزمنا أن نمتلئ بما تقرره أحكام اللغة العربية وقواعدها وأسرارها في مستوياتها جميعا.